ذاكرة امرأة عراقية

تفتح صفحة (قضايا عراقية)، نافذة لذاكرة المرأة العراقية المناضلة كي تكتب تاريخ وقفتها المشهودة والنادرة في تاريخ النضال السياسي للشعب العراقي بكل تياراته السياسية والفكرية التي قارعت حكم الطاغية وقدمت المرأة العراقية على مذبح حريتها ثمناً باهظاً شهيدة وسجينة ومنفية، نساء من طراز خاص تحدين إرهاب الدولة وصرخن عالياً بـ(يعيش العراق) وهن متوجهات إلى ساحة الاعدام أو حبل المشنقة، وتحملن كل عسف وألم زنزانات النظام المقبور. امرأة عراقية أخفت زوجها وابنها واخاها وحبيبها بل جارها، عن أعين فئران الزيتوني البؤساء هذه المرأة مطلوب منها ان تكتب هذا التاريخ الحقيقي للمرأة العراقية لا تاريخ اتحاد النساء وحفلات نادي الصيد! (قضايا عراقية) تفتح هذه النافذة.

أم جليل..

فقدت زوجها وأعدموا ثلاثة من أولادها ومنعوها من إقامة العزاء على الرابع لأنه من (العصاة)

بغداد / شذى الشبيبي

مشيناها خطى كتبت علينا
ومن كتبت عليه خطى مشاها

تذكرت هذا البيت من الشعر وانا أتطلع إلى محدثتي (أم جليل) وهي تتحدث عن ذكرياتها ونضالات ترى إنها لا تستحق الذكر بالمقارنة بما تسمعه كل يوم منذ سقوط النظام. كان لها خمسة أبناء اصغرهم الآن أصبح جداً وله أحفاد، هي لا تتذكر باليوم والشهر بل وضعت تاريخاً خاصاً بها مقروناً بوقائع لن تنساها تقول: حينما انحلت الجبهة الوطنية وأصبح الشيوعيون على المذبح كان الذعر يملأ بيتي ورأسي، أبنائي الخمسة تحت لواء الحزب الشيوعي ولطالما فتحت بيتي لمناسباتهم.. كنت لا أدري بأمر من فيهم احتار، أول من اعتقل (عباس) و(محسن) بقيت مثل (بلاع الموس) إن سألت عنهما فقد يكون ذلك حجة لجر الاخرين وإن سكت فسأموت قهراً، أدركت يومها أن ما سمي بالجبهة الوطنية كان كذبة وضحكاً على الذقون، ومع ذلك دبرت قرشين بعد بيع بعض أغراض البيت كي يستطيع ولداي (هادي) و(احمد) مغادرة المدينة ويرتاح بالي عليهما وبقي الصغير أمره سهلا، بعدها (شديت حزامي) وخضت دهاليز الأمن وطريق السجون، لا أدري من اين أبدأ وأنا مدخنة في ذلك الوقت صرت أدخن ثلاثة باكيتات وجفاني النوم، كان الرعب مثل الينابيع يحيط بنا من كل جانب.

بعد الواسطات والمبالغ الكبيرة التي دفعناها استطعنا معرفة بعض الأخبار عن ولديّ المسجونين، ولأني خشيت على زوجي أن يذهب كنت خائفة أن يلحقوه بولديه ويعتقلوه توكلت على الله ورسوله وذهبت إليهما كنت مستعدة لكل شيء لأن هؤلاء الأنذال بأيديهم رقاب أولادي وأصعب شيء أن تتعامل مع من لا يملك ذمة ولا ضميراً.

تستطرد جليستي في حديثها لتقول: في ليلتها دهمنا رجال الأمن وفتشوا البيت لم تنج منهم حتى أغراض المطبخ وكيس الرز والسكر فتحوا حتى علبة (الدهن) وبحركات استفزازية مستهترة، كان زوجي وبناتي يمسكون بي كي لا أفلت بكلمة وما زال ابني الصغير (جليل) بخطر في كل ليلة يقضيها في بيت، استمر الحال هكذا أكثر من أسبوع مداهمات ليلية يأخذون الأب معهم ولا يعود إلا بعد منتصف الليل.. يعود بعدها صاغراً أصفر الوجه ولا يكلم أحداً.

كنت أحس بمعاناته وعذابه، وكأنه بواد آخر، حتى كان ذلك اليوم المشؤوم، حيث اختفى (جليل) وضاع خبره بين البيوت الكثيرة التي كان يتردد عليها، وكانت النكبة كبيرة، حيث كنت أعرف ولدي وعمره (١٤) سنة ليس له خبرة بالعمل السياسي ولا يعرف معنى النضال الحقيقي وأساليب هؤلاء الحقراء خسيسة. وكان كل خوفي أن يعترف بأشياء تسبب العذاب والمصائب للآخرين.

وحينما سألت (أم جليل) بأن عمر ابنها صغير على النضال وما علاقته بالسياسة أجابت: كل الذي أعرفه أنه كان ومعه مجموعة من أقرانه مهمتهم إلصاق المناشير وتوزيعها والكتابة على الجدران في المنطقة. وذات مرة جاؤا فرحين يلهثون نشوة لأنهم تمكنوا من إدخال المنشورات إلى بيت المحافظ المحاط بالحرس واعتبروا ذلك انتصاراً كبيراً.

كان غياب الابن الصغير واختفاؤه الضربة القاضية لوالده. فلم يطل به العمر وتوفي بعد أسبوع ليترك الهم والحزن لي، لم يحتمل أن يفرغ بيته فجأة بعد إن كان ابناؤه الخمسة يملأونه بمرحهم وضحكهم (ولمتهم مع أصدقائهم)، أصبح البيت موحشاً علي أنا وبناتي، حتى في أيام العزاء، كنت أحملق في وجوه النساء المعزيات أتمنى لو إن ابني يدخل علي بزي امرأة.. بعدها قطعت الأمل وحسبته بعداد الميتين، بعد ثمانية أشهر أبلغونا بإعدام (عباس) و(محسن) وحينما ذهبت إليهم وطالبت بشهادة الوفاة وجهوا لي الشتائم والإهانات وهددوني. وكنت يومها قد فقدت أعصابي، ولم أشعر بالخوف نهائياً.

وكان لدي الاستعداد لافتراس من يقف بوجهي كالذئبة، واخيراً امسك بي اثنان منهم لاقتيادي إلى الباب الخارجي وأنا أسبهم والعنهم، وإذا بثالث يضربني (جلاق) رفع عباءتي فالتفت العباءة برجله كالحية انشغل رفاقه به فانتهزت الفرصة ورميت العباءة وأنا أركض واصرخ واستنجد بالناس.

وبعد عام ونصف اتصل بنا رجل من المسيب، قال إنه يريد مقابلتي بخصوص مسألة عائلية، توقعت أن يكون حاملاً لرسائل من ابنائي المسافرين، وذهبت مسرعة هناك فاجأني بأخبار من ابني (جليل) وأنه بصحة جيدة وأنه في تكريت ولا يستطيع الوصول إلينا.. وبعد ذلك بأشهر افتعلنا سفرة إلى سامراء وهناك التقيت بولدي حيث حكى لي كيف استطاع هو ورفاقه الإفلات من الأمن بعد مطاردة عنيفة أصيب فيها أحدهم وتمكن الباقون من الفرار إلى بغداد، هناك ذهبوا إلى بيت أحد الأصدقاء وبعد قضاء يومين شعروا إنهم ضيوف ثقلاء ولم يكن معهم ما يكفي فاضطروا لبيع ساعاتهم وتفرقوا بين المحافظات الشمالية وكان اتجاهه نحو الموصل. تواصل (أم جليل): شبع ولدي قهراً هناك ولا يملك فوت يومه ولا مأوى بعدها سافر إلى السليمانية وهناك لجأ لدى صاحب مطعم، استأمنه ورعاه كغريب وأخذه إلى بيته وفي النهار يعمل في المطعم، وحينما بدأ صاحب المطعم يكثر من أسئلته عن وضعه وأهله، استشعر خوفاً وذهب إلى قرية نائية في الشمال.

هناك التقى بالمصادفة بإحدى النساء من مدينته كانت معلمة وفرت لنفس الأسباب فاحتضنته واهتمت بأمره وساعدته في إيجاد عمل له في مطعم أيضاً. صممت جليستي لحظات مطرقة برأسها وكأنها تبحث عن زاوية في الرأس الأشيب لتلقي مجاميع العذاب والتعسف الذي أثقل كاهلها لسنوات.. تقول حينما رأيت ولدي ابن الرابعة عشرة لم أعرفه وكأنه شخص آخر فقد كبر عشرين عاماً.. كئيباً شارد الذهن يدخن بكثرة.. لم نتكلم كثيراً فقد كان يقرأ عيني وأقرأ عينيه.

نصحته أن يبقى في مكانه حتى نجد له مخرجاً بإذن الله، وخلال تلك الفترة لم نعرف أي شيء عن أخوته الذين غادروا المدينة ولم يصلنا أي خبر منهم إن كانوا داخل العراق أو خارجه.قاتل الله الزمن الأسود الذي ابتلع الأبناء وشتت العوائل ومزق الأعمار فكان الكل يفتقد الكل.. الكل يسأل عن الكل.. والرعب قد أخرس جميع الأفواه..

تقول (أم جليل): مر أكثر من عامين وأنا استقصي أخبار (هادي) و(محمد) وكان ملاذي الوحيد زيارة مراقد أهل البيت والأئمة الطاهرين أدعو الله في صلاتي أن يثلج صدري واسمع ما يريح بالي عن أبنائي المتبقين وذات يوم سمعنا بأن ابني محمد استشهد في كردستان وتأكد لنا ذلك حينما استدعوني في الأمن، وأثناء التحقيق أبلغوني بأن ابني عاصٍ وخائن، وكان يحارب الدولة مع العصاة (البيشمركه) ومنعوني من إقامة مجلس فاتحة أو عزاء وأجبروني على توقيع تعهد بعدم إخفاء أي معلومة أعرفها عن أبنائي.

لا أعرف كيف يمكن لأم قتل ثلاثة من ابنائها أن تمسك دموعها وتحبس عاطفتها وإن أجبرت نفسها على النسيان فماذا تنسى؟؟ اختلط كلام محدثتي المسنة ببكاء خافت ولم أعد أفهم سوى إنها بدأت تسترجع ذكرياتها وتحاكي أبناءها وكأنها دفنتهم للتو، تتذكر تفاصيل منذ ولادتهم وكيف كان احدهم يحبو وسقط في حفرة المجاري أو الآخر ضرب أخاه بـ(الحصوة) وحبسه والده في السطح، تتذكر شجاراتهم الطفولية بسبب (الدعبل) و(الطوبة)، التفافهم حول (صينية الدولمة) ترثي شبابهم الذبيح على طاولة البيت الدموية والحكم الجائر.

تفاصيل صغيرة تعيش في الذاكرة تعلن عن أعوام المخاض العسير التي لم تجن منها (أم جليل) وغيرها إلا الدموع والفقر والأمراض بدءاً بالضغط والسكر والقلب إلى فقدان البصر.

على هامش محاكمة العصر..

كيف حكم عواد البندر على ٥٦ معتقلاً في قضية اسمها (مجموعة ١٠/٤)؟

بغداد / المدى

فاخر المظفر أمضى عشر سنوات من عمره في سجون الطاغية وهو الآن رئيس مجلس إدارة اتحاد السجناء السياسيين، يروي ذكرياته عن تلك السنوات السود (إن ما أرويه ليس حكايتي كضحية، بل إنها رواية الظلم الذي وقع على الشعب العراقي طوال الحقبة الصدامية).

يقول فاخر المظفر وهو من مواليد ١٩٥٢ حصل على بكلوريوس لغة عربية من جامعة البصرة، (كنت جالساً في متجر أحد الأصدقاء في البصرة كان ذلك يوم ١٩٨٢/٢/١٨، حيث توقفت أمام المتجر ثلاث سيارات حديثة نزل منها رجال الأمن واقتحموا المحل واقتادونا أنا وصديقي إلى أمن البصرة، ووجدت أمامي معلومات واعترافات عني شخصياً لا صلة لي بها، كان أحد أقاربي قد أجبر على تقديمها إليهم والتهمة التي ترشحت عن المعلومات والاعتراف هي تهمة الانتماء لحزب معارض للسلطة.

كان معتقل أمن البصرة يغص بأكثر من (٦٠٠) معتقل موزعين على قاعات مساحة الواحدة منها (٥×٥م) وكلها تحت الأرض وبدأ التحقيق بأسلوب تعذيب يعرف بـ(الكنارة) وهي وسيلة لتعليق الشخص بالمروحة السقفية واسفلها كرسي، ويعرض المعتقل لرجات كهربائية في المناطق الحساسة، ويقومون باستخدام ما يشبه التلفون لتوليد التيار الكهربائي الذي يصدمون به المعتقلين وطلبوا مني الاعتراف بالمعلومات وتثبيت الاعترافات التي قدمها ذلك الشخص الذي أجبر على إيراد اسمي في إفادته في البداية اصررت على عدم معرفتي بالشخص وأنكرت كل شيء، فاحضروا الرجل أمامي، وكان شجاعاً إذ أنكر معرفته بي وقال لهم (إنني اعترفت عليه من اثر التعذيب ولكي أخلص نفسي من الآلام). وما كان منهم إلا أن أخضعوا الرجل إلى جولة تعذيب لم ار مثلها، إذ عروا الرجل وأجلسوه على مدفأة نفطية من نوع علاء الدين، وقد عصبوا عينيه، وبعد ان سقط الجلد علقوه بـ(الكنارة) حتى تمزق ساعداه وبقي لعامين لا يستطيع الأكل بيده، وكنا نطعمه، شخصياً استطعت الصمود لمدة (١١) يوماً، ثم جلبوا لي أوراقاً تحقيقية تخصني، إذ كنت قد اعتقلت ثلاثة مرات، وقالوا (أنت من أرباب السوابق، وقد أخلي سبيلك في عفو عام (٧٩) وشاركت بمسيرات النجف.. ولهذا فأنت معاد للحزب والثورة، ولم يكن ذلك الشخص الذي اعترف علي، علي علاقة بي ولكنه كان صديقاً لأخي في الجامعة وأنا أكبر بعشر سنوات منه، التعذيب الجسدي والضغط النفسي وإصرارهم على إلصاق التهم بأي شخص يعتقل كل ذلك جعلني أفكر بطريقة واقعية فقلت لهم (ماذا تريدون؟) قالوا: (هل أنت مسؤوله الحزبي أجبت (انا مسؤوله)، ثم طلبوا مني الاعتراف كرهاً على الشخص المسؤول عني، فاعترفت على شخص ميت ثم وقعنا على الإفادة، واعتبرنا من المشاركين في أحداث ١٩٨١/١٠/٤ وهي أحداث كان بطلها الدكتور شاكر صيهود حيث كان الهدف منها عزل مدينة البصرة، وقد سميت المجموعة بـ(مجموعة ١٠/٤) وبلغ عدد الأيام التي أمضيتها في أمن البصرة (٣٣) يوماً، ثم نقلنا إلى مديرية الأمن العامة في بغداد).

ذاكرة الأمن العامة

قبل أن أحكي لكم عن الفترة التي قضيتها في مديرية الأمن العامة، دعوني أذكر لكم واحدة من الأحداث التي لم استطع نسيانها ففي أمن البصرة جيء بشخص لا أتذكر اسمه وكنت في قاعة التحقيق وقيد الرجل على احد الكراسي، واستخدمت معه كل صنوف التعذيب، فلم يعترف، فأمروا باستدعاء زوجته وبعد ساعة أحضروا الزوجة، وكانت تحمل طفلاً لا يتعدى عمره بضعة شهور، وهدد بفعل الفواحش بزوجته أو الاعتراف، ومع ذلك لم تهن صلابته وجلده، ثم قاموا بربط زوجته بكرسي آخر، وأخذ منها الطفل، وهددا بقتل الطفل، أصيبت الأم بالإغماء. كان المحقق آنذاك الرائد (فاضل الزركاني) مدير التحقيق، وكان مجرماً حقيقياً إذ أخذ الطفل، والكل يرتجف ويراقب ما الذي سيفعله هذا الوحش، رفع الطفل وضربه بالأرض: فتمزق جسد الطفل أشلاءً ودماء، ولحظتها سرى خوف رهيب في نفوس المتواجدين في غرفة التحقيق وأولهم المجرم (فاضل)، الذي انتبه لنفسه، فأخرجنا من الغرفة ولم أعرف مصير الأب والأم).

محنة النوم

وفي الأمن العامة بقينا لمدة سنة ونصف بعضها لاستكمال التحقيق والقسم المتبقي بانتظار يوم المحاكمة، وضعنا في غرفة طولها (٢,٥م) وعرضها (٢,٥م)، ودورة مياه تضم حماماً مساحته متر مربع ومرافق وكنا (٣٦) معتقلا حشرنا في هذه الغرفة الضيقة (الزنزانة)، واحترنا في الكيفية التي ننام فيها وفي البداية كان نومنا وقوفاً لثلاثة أشهر.. ثم جاءت لنا توجيهات بالنوم على شكل أسماك السردين المعلب، ستة تكون رؤوسهم باتجاه الحائط الأيمن، وستة تكون رؤوسهم باتجاه الحائط الأيسر والنوم على الجنب مع مخالفة الأرجل، ويبقى اثنا عشر واقفون أما الـ(١٢) الباقون فينحشرون في المرافق وفوق حائطها، وبالتناوب كل ساعتين، أما بالنسبة للأكل فكانوا يقدمون لنا ٤ صمونات وبيضة وماعون شوربة، وبعد أن تم تدقيق ملفات التحقيق بقينا لمدة ستة أشهر في الأمن العامة، وبدأت المحاكمات على شكل وجبات، وضمت وجبتنا (٥٦) معتقلاً في نفس القضية، وهي قضية أحداث (١٠/٤) وكلنا من أهالي البصرة.

واقتادونا إلى محكمة الثورة، التي عينت محامياً للدفاع عنا، وبدلاً من أن يؤدي واجبه المهني كمحامي دفاع، لم يقل شيئاً بعد تلاوة الإفادات سوى (أطالب بإنزال أقصى العقوبات بهؤلاء الخونة). واستغرقت المحكمة ساعة واحدة ثم نطق عواد البندر بالحكم (التسلسل من كذا إلى كذا) بالإعدام، ومن كذا إلى كذا مؤبد، ومن كذا إلى كذا أحكام متفاوتة، وأذكر أنه تم الحكم بالإعدام على (٤) من بين الـ(٥٦) متهماً. ثم نقلنا إلى سجن (أبو غريب).

> وقف محامي الدفاع في محكمة الثورة في القضية التي أطلق عليها قضية (مجموعة ١٠/٤) وقال: بعد ان تليت الإفادات على عجل (أرجو من هيئة المحكمة الموقرة إنزال أقصى العقوبات بهؤلاء الخونة)!

في سجن (أبو غريب)

وفيه حشر كل (٥٠) محكوماً في زنزانة مساحتها (٤×٥) متر مربع ولم نر الشمس ولم نقابل معارفنا ولم نر طبيباً لمدة سبع سنوات وبسبب ذلك ومن مجموع (٣٠٠٠) سجين، أصيب (١٨٠٠) منهم بمرض التدرن الرئوي وروماتزم العظام والدم، وبسبب ذلك اضرب السجناء، وقمنا بإحراق البطانيات مما أثار حرس السجن الذين طوقوا السجن بالدبابات عام ١٩٨٩، وقاموا بإلقاء القنابل المسيلة للدموع، واقتادوا ١٢ سجيناً ولم يعرف أحد مصيرهم، ثم حضرت لجنة إلى السجن واطلعت على مطاليب السجناء التي تلخصت بتحسين ظروف السجن كالغذاء والشمس والعلاج الصحي، وفسح المجال أمامنا للحركة داخل باحات السجن، وتم الاتفاق على تلبية المطاليب بمقابل انصياعنا للإصغاء إلى محاضرات).

قصة المحاضرات

(القى المحاضرات إعلاميون وسياسيون أذكر منهم صلاح المختار ومازن الرمضاني، وكان الهدف من تلك المحاضرات غسل أدمغة السجناء، وتغيير أفكارهم، وتعمد السجناء إشغالهم ببعض المطالب، كالعفو، والبراءة وتحسين الأوضاع، واستمر إلقاء المحاضرات لمدة أربعة اشهر، توقفت المحاضرات لعدة أشهر، وبعدها لجأوا إلى أسلوب آخر هو إجبارنا على الاستماع إلى خطابات صدام في التلفاز، وخلالها لا يسمح للسجين بالصلاة أو الأكل أو القيام بالحركة فيجب أن يصغي الجميع إلى خطاب الطاغية، وخلال ذلك يحضر عدد من رجال الأمن للمراقبة بعدها سمحوا بالمواجهة (المقابلات) واستطاع السجناء مقابلة عوائلهم لمدة سنة ومن قامت انتفاضة آذار قطعوا علينا زيارة عوائلنا، واتهموا السجناء بتحريك الانتفاضة من داخل السجن، وأعيد التحقيق من جديد واعتقل عدد من داخل السجن ونقلوا إلى معتقل الرضوانية وأعدم من اعدم، حتى جاءنا الفرج بعد أن علمت منظمة العفو الدولية بوجودنا في داخل السجن وبالظروف السيئة التي نعيشها، وأصدرت المنظمة مذكرة (فانديل شتويل) وكان في حينها مدير المنظمة واضطر النظام لإطلاق سراحنا في يوم ١٢/٢٣/ ١٩٩١، وقد تأخر إخلاء سبيلنا ٦ اشهر، وذلك لإجبارنا على التطوع والانصياع لإرادة النظام الديكتاتورية).

ملاحقة بعد السجن

وبعد أن أطلق سراحي بسبعة أيام اقتحم الأمن الدار وقاموا باعتقال اشقائي كلهم في البصرة (عقيل وماهر ومنذر وميثم) ولم أعلم شيئاً عن مصيرهم، وقد حالفني الحظ لأن اسم الأب لم يكن متطابقاً فهم أخوتي من الأم، ولمعرفتي بطريقة الأمن استطعت التخلص منهم بعد (٧٠) يوماً من الاعتقال، ولم نعثر إلا على واحد منهم، وقد غادرت البصرة لكثرة ملاحقات الأمن لي واستمر الحال على هذا المنوال حتى سقوط الصنم.